مقدمة

أُعدّ هذا البحث بادئ الأمر ، ليكون رسالة للحصول على درجة الماجستير ، وكان يحمل اسم (الأصمعى الراوية) ، وشغل الباب الأول فى تلك الرسالة بحثاً عن الرواية عامة : الرواية الأدبية ، ثم رواية القرآن ، فرواية الحديث ، فرواية اللغة بعد ذلك .

لم يكن فى العصر الجاهلى من أنواع الرواية غير الرواية الأدبية القائمة على إشباع حاسة القول فيهم ، وهى من أدق حواسهم وأرهفها ؛ وكانوا قد فطروا على لغة توارثها صغيرهم عن كبيرهم فى محيط القبيلة ، ولم يكن الاختلاف خارج القبيلة على درجة يمنع التبادل اللغوى أو يحدّ من الإفهام وكان يقلل من هذا الاختلاف أن لغة الشعر كانت أقرب ما تكون إلى اللغة الجماعية المختارة التى لاتشذ عنها مداركهم ، وإن بقى فيها أحياناً ما يشير إلى موطن القصيدة ، أو القبيلة التى صدرت عنها استناداً إلى خصائص معينة .

وكان الشاعر ينبوأ مكاناً رفيعاً فى القبيلة ، يقول فيتلقف الرواة قوله ، ثم لا تلبث قصائده أن تكون حديث أبناء الحى وبناته ، كما يقول حميد بن ثور :

لأعترضنْ بالسهل ثم لأحدُوَنْ قصائد فيها للمعاذير زاجر
قصائد تستحلى الرواة نشيدها ويلهو بها من لاعب الحى زامر

ومردّ ذلك إلى تعلق العربى بهذا الفن الذى يصل به إلى الاستسلام أمام سحر القريض ، وفصاحة الخطبة : فكم من حرب استعر أوارها ، أو وضعت أوزارها وكم من وضع اجتماعى أرسى قواعده أمام سحر البيان ولقد قامت الدعوة الإسلامية وهى تجذبهم من هذه الحاسة ، فلا غرابة أن تقام الولائم ، ويتباشر الولدان إذا نبغ شاعر فى قبيلة .

والخطابة ، والأمثال من ضروب فنون القول عندهم إلا أن ما وصلنا منا قليل وجل ما وصلنا من وراء هذه الأزمان هو الشعر الذى كان يصونه وزنه وقافيته .

ثم جاء الإسلام بالكتاب الكريم ، والتف المسلمون حوله ، بعرب وغير عرب ، يجدون فيه تعاليم الدين والدنيا ، وعنى به نفر يحسنون تلاوته ، ويتدبرون معانيه – هم القراء تلمذ لهم رواة عرفوا بهذا الاسم ، وظلت رواية القرآن إلى آجال متتابعة ظاهرة المعالم بيّنة الأثر يمكن

تتبعها متواترة حتى يتصل سندها بالنبى ﷺ ، ثم تجرد قوم للقراءة ، وتعددت القراءات ، واتفقوا بادئ الأمر على سبع قراءات ، والذين يجعلونها عشرا يضيفون إليهم يعقوب الحضرمى ، وأبا جعفر يزيد بن القعقاع ، وأبا محمد خلف بن هشام ، والمشهور أن السبع متواترات ، والثلاث آحاد ، ولكل قراءة رواة وطرق .

وجاء القرآن مجملاً ، ففصلته الشريعة الغراء ، عنى بها أئمة المسلمين : بدأ ذلك نفر من الصحابة رضوان الله عليهم ، فحفظوا عن النبى ﷺ أقواله وأفعاله ، فأتقنوا وتثبتوا وهم يعلمون أن من الحديث ما هو تفصيل للقرآن وبيان لمجمله ، وتوضيح لغريبه .

والصحابة على رأس رواة الحديث ، والتابعون من بعدهم ؛ ثم اتجهت المفاضلة إلى نزعة إقليمية : فأهل المدينة يقولون : سعيد بن المسيب ، وأهل الكوفة يقولون : أويس ، وأهل البصرة يقولون : الحسن البصرى .. ثم بدأ علماء الحديث ، فوضعوا رواته تحت النقد الشديد ، وعنوا بدراسة السند ، كما عنوا بدراسة المتن ، وبلغت الدقة بعلماء الحديث أن قسموا المحدّثين من حيث الدقة فى الرواية إلى فئات ، ووضعوا لهم الأقيسة والشروط التى تضع الواحد منهم فى مكانه الصحيح : فإذا قيل للمحدث ، إنه ثقة أو متقن – فهو ممن يُحتج بحديثه ، فإذا قيل – إنه صدوق أو محله الصدق – وضع فى المرتبة الثانية ، وحينئذ يكتب حديثه وينظر فيه ، وإذا قيل للمحدث – شيخ – فهو فى المرتبة الثالثة ، فإذا قيل – صالح الحديث – وضعوه فى المرتبة الرابعة .

ووضعوا الرواة فى الجرح على مراتب أيضاً : فى أعلاها (ليِّن الحديث) ، ثم يطلقون على المحدّث دون هذه الدرجة (ليس بقوى) ، ثم (ضعيف الحديث) ، ثم (متروك الحديث) أو (كذاب) حيث يجمعون على ترك حديثه .

وكانت « رواية اللغة » آخر هذه الأنواع تأريخًا ، ولم تجئ دواعيها إلا حين اتسعت الرقعة الإسلامية ، وأقبل الناس يتعرفون على العربية ، لغة الدين ، لغة العرب ، لغة الحاكم ، فإذا اختلفوا فى شىء التمسوا صحيحه من صحيح اللغة ، وكانت الآثار الأدبية هى الأوعية التى حملت ألفاظ هذه اللغة وتراكيبها ، وبيَّنتْ طريقة العرب فى قولها ، وفى فهمها .

كان هذا موجز الباب الأول فى كتابنا (الأصمعى الراوية) الذى أُعد ، ليكون رسالة للحصول على درجة الماجستير ، شُغلنا عن طبعه ونشره بكتابة مؤلف ثانٍ هو (رواية اللغة) ، ليكون رسالة للحصول على درجة دكتور فى الآداب ، ونشر الكتاب الأخير وبقى الأصمعى

ومصاير الأشياء معلقة بمقاديرها ، تعلم منها شيئاً وفى علم الله أشياء !

لم أجد من السائغ أن أترك فى كتاب الأصمعى باباً يتحدث عن الرواية بعد أن وضعت كتاباً بأكمله عن (رواية اللغة) عرض للرواية الأدبية فى مقدمته ، ثم تناول مدارس العراق : البصرة ، والكوفة ، وبغداد ؛ ولم أضع قلمى قبل أن أكتب مؤلفاً ثالثا عن (الرواية فيما وراء العراق) تناول هذا الوجه شرق العراق والشام ومصر ، وغربى أفريقية ، والأندلس ، وأخذ الكتابان سبيلهما إلى المطبعة ، ونُشرا ونفسى معلقة بالبحث اللغوى ، فشغلت بوضع كتابين هما : (مصادر اللغة) و (الأعراب الرواة) ، ثم شغلت مرة أخرى بوضع معجم لأسماء النباتات التى وردت فى كتاب الفلاحة لأبى زكريا الأشبيلى بعدة لغات .

عدت إلى الأصمعى . وأرسل إلى لبيبا ليطبع ، وأرسلتُ فى أثره عشرات الخطابات والاستفسارات ، ولكن يبدو أن أحداث لبنان كانت قد أصابته كان علينا أن نعيد كتابته ؛ ليصبح (الأصمعى اللغوى – صورة عراقية فى القرن الثانى الهجرى) .

وبعد – فمن الأصمعى ؟

لا يبعد هذا الاسم عن سمع الباحثين . فكل من تستهويهم دراسة الفصحى ، والتزوّد من نفائسها وأسرارها – لا يكادون يطرقون أبوابها حتى يصادفوا اسم الأصمعى ما لا يحصى من المرات . فهو من أفذاذ رواتها ، وأوثقهم ، وأكثرهم إحاطة بأطرافها ، ونفوذًا فى دقائقها ؛ وإليه المرجع فى معانى الشعر ، وغريب اللغة ؛ ومع هذا لم يحظ من اهتمام المؤلفين إلا بما دون القليل . وليس فى المكتبة العربية كتب أفردت للتعريف به – تعريفاً علميًّا – غير كتابين :

الأول : كتاب المنتقى من أخبار الأصمعى لضياء الدين المقدسى ، انتقاه من كتاب أخبار الأصمعى للإمام الربعى ، وهذا الأخير غير موجود – على ما نعلم – وعنى بنشر كتاب المنتقى الأستاذ عز الدين التنوخى ضمن مطبوعات المجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٣٦ ، وقد تناول أخبار الأصمعى فى نصوص متراصة على طريقة التصانيف القديمة .

الآخر : كتاب (الأصمعى – حياته وآثاره) وضعه الدكتور عبد الجبار الجومرد ، وطبع فى مطابع الكشاف ببيروت سنة ١٩٥٥ : قسّم الجومرد كتابه إلى فصول بدأها بمقدمة طويلة فى تاريخ البصرة ، وكتب فصلاً عن حياة الأصمعى : تكلم عن صفاته الشخصية ، بخله ، وظرفه ، وتدينه ، وحمّل الأخبار ما لا تطيق ، ليخلص إلى رأى يقول فيه : إن الأصمعى كان يعرف الفارسية ، ثم تكلم عن صلته بالرشيد ومجالس الرشيد ، واستطرد فى تصوير هذه

المجالس ، كما حاول أن يربط بين القصّة فى الأدب العربى الحديث وما عرف للأصمعى من مرويات قصار ، أو يخلق بين الاثنتين سبباً – وهذا فى رأينا – استكراه أو إلحاح فى التخريج ، فإن مرويات الأصمعى القصيرة لا تتجاوز السطر والأسطر القليلة التى تجرى مجرى الحكمة أو المثل ، أو تشير إلى نكتة لغوية أو أدبية ربما لحظ أن المجتمع البصرى الجاد المتجهم فى حاجة إليها ، وربما خَفَّ على قلب الرشيد حين ذهب إلى بغداد بسبب منها إذا جاءت لمجرد التَّخفيف والاسترواح ، ولكنها لا تصل فى غرضها إلى فكرة التأليف فى القِصّة . ويعتبر كتاب الجومرد أحسن ما وصل إلينا عن الأصمعى تنظيماً وتبويباً على المنهج الذى أراده له صاحبه .

وكان علينا ونحن نقدم تأليفاً عن الأصمعى أن نبحث فى كتب التراجم ، وكان بعضها موجزاً لا يشفى غُلّة ، يكتفى بالإشارة إليه فى سطور مقتضبة ، أو يلخص ما كتب فى كتاب آخر ، وكان المطوّل منها يحوى أخباراً عنه وسط سلاسل طويلة من الرواة والنقلة والإخباريين .

كانت الرواية حتى بداية القرن الثانى الهجرى تعنى الرواية الأدبية ، أو رواية القرآن ، أو رواية الحديث ، أما رواية اللغة فلم تكن شيئاً مذكوراً ، ولم تكن دواعيها قد ترابطت ، لتؤذن بميلاد علم جديد .

كانت العربية بين أهلها يتلقاها خالفٌ عن سالفٍ ، فلما رَحُبَتْ أرضها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً غَرُبَتْ اللغة على مشارف الجزيرة ، وتَعيّن على المسلمين على اختلاف أجناسهم أن يتجهوا إلى كتاب الله يقيمون به صلاتهم ، ويجدون فيه تعاليم دينهم ورسوم دنياهم . واختلفت أوجه الفَهْم ، وتعدّدت الآراء ، وكان لابدّ من ضابط لهذا المضطرب ، فرُئى الرجوع إلى العربية فى مصادرها المُوَثَّقَة .

نشط لهذا الوجه رجال من البصرة أخذوا عن علمائها فى المسجد الجامع ، ثم راحوا يبحثون عن العربية فى أوعيتها من شعر ونثر ، يتلمسونها من أفواه الأعراب الخُلّص الذين يفدون فى بعض حاجاتهم إلى البصرة ، ثم يمموا فى سبيل هذه الغاية إلى المربد ، ثم طوّفوا فى البادية ، وعاد أكثرهم ، ليصُنِّف بضاعته على الوجه الذى تَخيّره ، ويناقش فيه أصحابه ، ويلقّنه طلابه . وكانت هذه أيضاً بداية جمع اللغة .

نجم فى القرن الثانى الهجرى عُمُدُ الرواية ، ومن بينهم ثلاثة رجال يمثلون عصبها هم : أبو سعيد عبد الملك بن قريب[1] الأصمعى ، وأبو زيد سعيد بن أوس ، وأبو عبيدة معمر

(١) اسم والد الأصمعى .

بن المثنى ، وكان بينهم ما تفرضه المعاصرة من خصومة ومنافسة ، واتفاق فى الرأى حيناً ، واختلاف فيه حيناً .

عاد أبو سعيد بعد رحلات شاقة فى البادية ، شَافَهَ فيها الأعراب ، وجلس إلى علماء الحجاز ، فأخذ قراءة نافع ، وصَحَّحَ شعرَ الهُذَلِيِّين على محمد بن إدريس الشافعى إلى غير ذلك ، عاد ، ليعقد حلقته فى البصرة ، وليُقَيِّدَ علمه هذا الجديد الذى يتمثل فى ألفاظِ العربية ، وصيغها ، وتراكيبها مضبوطة بشواهد من الشعر والرجز ، منسوبةً فى أكثر الأحايين لخُلَّصِ الأعراب وقدامى الشعراء ، وموضوعة تحت الاختبار الشَّديد .

وحين يَدِقّ العلم تترسَّبُ غوامضُه ، وتَجِلُّ الكلفةُ فيه ، ولا ينشط له إلا أماثل العلماء : تحدث أبو سعيد فى غريب اللغة ، ونوادرها وهو ما يتجاوز القدر المشترك بين عامة المتعلمين ، ولا يستطيع ذلك إلاّ أصحاب الفهم العميق الذين تَسَلَّحُوا للعربية بفيض من السَّماع ووعى الحافظة .

طارت شهرة الرجل إلى بغداد ، وكان مجلس الرشيد لا يبلغ تمامه إلا بكبارِ العلماء ، فأخذ الأصمعى مكانه هناك ، ولم يلبث أن صار واسطة العقد فى الشعر واللغة ، وخَفَّ على قلب البرامكة ، فلما ألَّف كتابهَ فى نوادر اللغة أهداه إلى جعفر بن يحيى كشىء ثمين ثم عاد إلى البصرة بعد مقتل جعفر ، ليعقد بها حلقته مرة أخرى ، وليجلس إلى طلابه الذين وَفَدُوا إليه من أقاصى البلاد يلتمسون عنده علم العربية .

والأصمعى الذى ذهب إلى دار الخلافة مؤمَّلا للظفر عند الرشيد – قد ترك العاصمة لم يَغْنَمْ فيها كثيراً فلقد كانت بين جنبيه نفسٌ مُتَحرِّجةٌ مُتَأَثِّمةٌ تخشى مجرد تفسير القرآن أو القول فى الحديث ؛ كما كان لا يتكلم فى شعر الهجاء ، ولم يشارك فيما خاض فيه الفلاسفة والمتكلمون وأصحاب المذاهب ومثل هذا الرجل لا يصبر طويلاً أمام حياة القصور وفيها دهاة السياسة وطلاب الدّنيا وكاد ينزلق إلى مهوى الدَّم الذى مزَّق البرامكة شرّ ممزق كان آخر منظر رآه فى بغداد هو رأس جعفر البرمكى بين يدى الخليفة الغاضب الباطش ، وكانت آخر كلة سمعها من الرشيد : (الْحَقْ بأهلك يا بن قُرَيْب) ، فكان الإياب إلى البصرة هو غنيمة الأصمعى من دار الخلافة ، وظل هذا المنظر أمامَ مخيِّلَتِه ، وظلت هذه الكلمة تِطَنُّ فى أذنه ، فلم يستجب بعدها لدعوة المأمون الذى كان يُمَنِّى نفسه بمقدم هذا العالِم الكبير ، ويقول لأصحابه : كأنى وقد طلع عليكم الأصمعى .

أما الجاحظ ، الكاتب الساخر الذى ألْهَبَ الأصمعى بقلمه وهو يصُور بخله فى كتاب البخلاء فى (لوحة) تنتزع الضحكات من صدور الثكالى – فلم يكن يُدَوِّن واقعَ الحال بقدر ما يعالج (لوحةً) فنيةً كانت المبالغةُ الصارخةُ أبرز ألوان تلك (اللوحة) !

وكادت مؤلفات الأصمعى تلقى مصيراً باهتاً أيضاً لولا أن قَيَّضَ الله لها المستشرق أوجست هفنر فعُنِىَ بنشر ما وجده منها : نشر الدارات ، والخيل ، والإبل (فى روايتين) والنبات والشجر ، والنخل ، والأضداد ، وكذلك نشر المستشرق رودلف جاير كتاب الدارات ، ونشر الدكتور دافيد هنريخ مولر كتاب (الفَرْق) بفتح الفاء ، ونشر الأصمعيات لأول مرة المستشرق وليم ألوردت فى ليبزج سنة ١٩٠٢ ، ثم أعاد نَشْرها الأستاذان أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون سنة ١٩٥٥ ، ولقد عُنِى الآباء اليسوعيون بمؤلفات الأصمعى تقديراً لها ، وإعظاماً لشأن صاحبها ، فأوسعوا لها فى مجلة المشرق ، ونُشِرَ بعضُها تباعاً على صفحاتها .

والكثيرون يعرفون الأصمعى على أنه عالِم لُغةٍ يُدرك ألفاظها ، وينسبها إلى هذه القبيلة أو تلك ، ويحتَجّ لها بشعر أو رجز ، جمع أكثرها مُبَوَّبَةً تحت موضوعات ، فكانت خطوةً إلى المعاجم التى حاولت حصر العربية : كالعين ، والجمهرة ، والصحاح ، والتهذيب إلى غير ذلك ، ولكن الأصمعى كان يجمع إلى جانب هذا حافظةً واعيةً ، وحِسًّا عربيًّا دقيقاً ومعرفةً بدروب الجزيرة ومعالِمها الجغرافية ، وإدراكاً لطبائع ساكنيها ، فأعانه كل أولئك على تَذَوّق الشعر وفهمه ونقده – ونحن نعد ملاحِظَه الدقيقة فى النقد طَفْرَةً فى الدّراسة الأدبيّة – وله تسميات نقديّة بقيت إلى يومنا هذا ، يقول لمحدثه : أتعرف التفاتات جرير ؟ قال : فما هى ؟ قال :

أتنسى إذ تُوَدِّعنا سُلَيْمَى بعود بشامةٍ – سُقِى البَشامُ

ألا تراه مقبلا على شعره ، ثم التفت إلى البَشام فدعا له ؟ وقد بقى أسلوب الالتفات معروفاً بالاسم الذى أطلقه الأصمعى ، ودخل به فى أنواع البديع منذ ابن المعتز وإلى الآن حاملاً نفس التعريف الذى أطلقه عليه الأصمعى !

ومع هذه المقدرة على النقد القائم على تَذَوّق طعوم الشعر ونزعات أصحابه – فإنه لم يَجْنح لى تغيير الرواية والخروج عن النّص الذى أراده صاحبه ، ولم تكن تُعوزُه الحيلة لو أراد أن يُغَيِّر

من رواية البيت أو يُصْلحه ، ليستقيمَ ما بَدَا له مُعْوجًّا ، ولكنه كان يلتزم بمنهج الرواية العلمية المبنية على التَّثَبتَ فى المتن والسند .

هذا هو الأصمعى الذى أقدمه ، فى صفحات هذا الكتاب المتواضع ، وبقى لعلماء العربية الشىء الكثير يتحدثون فيه عن الأصمعى العالم الفذ .

obeikandl.com